

مَدْرَسَةُ الْإِسْكَانِيَّةِ



الهاوية في المفهومين الكتابي والآبائي

د. سامح فاروق حنين



إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا فَلَنْ تَفْهَمُوا

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٤

الهاوية في المفهومين الكتابي والآبائي

د. سامح فاروق حنين



مدرسة الإسكندرية

الهاوية «Ἅβυσσος» في المفهومين الكتابي والآبائي

د. سامح فاروق حنين

مدرس الأدب البيزنطي

بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية

بكلية الآداب . جامعة القاهرة

جاءت كلمة «هاوية» في العهد القديم ترجمة للكلمة العبرية «شأول» (*She'ohel*)، وهو اسم لدار الموتى سواء كانوا في السعادة (انظر مثلاً تك ٣٧: ٣٥، ٤٢: ٣٨، ٤٤: ٢٩ و٣١، أي ١٤: ١٣، مز ٦: ٥، حا ٩: ١٠)، أم في العذاب (مز ٢٥: ١٥، أم ٩: ١٨). ولكنها في الغالب الأعم تشير إلى مكان العقاب. وهو أمر أوضح في العهد الجديد عنه في العهد القديم وإن كنا نجد بعض التلميحات لذلك في العهد القديم (راجع مثلاً عد ١٦: ٣٣، تث ٣٣: ٢٢، أي ٢٤: ١٩، مز ١٩: ١٧، إش ١٤: ٩-١١، ٣٣: ١٤، حز ٣٢: ٢١، ٢٢، دانيال ١٢: ٢). وقد تستخدم نفس الكلمة في الإشارة إلى القبر (أي ١٧: ١٣، مز ١٦: ١٠). أما في العهد الجديد فقد أتت كلمة «هاوية» ترجمةً للكلمة اليونانية «هاديس»^(١) (*Ἅδης*) والتي قد تعني «المكان غير

^١ هاديس هو إله الموت كما تزعم الأساطير الإغريقية. كان يحكم مملكة الأموات التي تحمل الاسم نفسه. وقد أبقى الرومان على كل الأساطير المتعلقة بهاديس ومملكته ولكنهم سموه بلوتو. تزعم الأسطورة أن هذا الإله ابن لكرونوس وريا وأنه الأخ الأكبر لزيوس، ملك الآلهة. ورغم أهمية هاديس عندهم، فلم تكن هناك أية طقوس خاصة به ولا تُوجد إلا أساطير قليلة عنه. ومملكة هاديس منطقة محايدة مخصصة لأرواح الأشخاص الذين لا تنتظرهم عقوبة، أو ثواب عند موتهم. وكان الإغريق يعتقدون أنه رغم غياب العذاب عن هذه المملكة، إلا أنها مكان ممل. وتذهب أرواح الأشخاص الذين عاشوا حياة فاضلة، لتعيش حياة سعيدة في الجنة الأسطورية. أمّا أرواح ذوي الأخطاء الفاحشة، فتذهب إلى تارتاروس *Tártaros*: «لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم (تارتاروس *Tártaros*) وسلمهم محروسين للقضاء» (انظر ٢ بط ٤: ٤). وهو مكان بعيد تحت الأرض (العالم السفلي) كان يقوم مقام سجن ليس للبشر بل لأنصاف الآلهة والمزدة الذين تمردوا ضد كبير الآلهة زيوس تمامًا كما تمردت الأرواح الشريرة على الله فأرسلهم إلى نفس هذا المكان. وهذا المكان كان يوجد تحت «هاديس» أي أسفل مكان الأرواح البشرية حيث كانت تُحتجز للموت هناك. ومن دقة الوحي الإلهي لم تُشر الكتب المقدسة إلى كلمة «تارتاروس» كمسكن سفلي للأرواح البشرية بل المخلوقات الروحانية أو الملائكة «الذين أخطأوا» وهذا المكان لم = يكن مكاناً فعلياً لمعاينة تلك الملائكة بل «مكان حجز في ما يشبه الزنانات المظلمة» تمهيداً للعقاب فيما بعد ربما في جهنم، انظر في هذا:

المرئي»^(٢) كما فى مت ١١: ٢٣، لو ١٠: ١٥، أع ٢: ٢٧ و ٣١، ١ كو ١٥: ٥٥، رؤ ١: ١٨، ٦: ٨، ٢٠: ١٣ و ١٤). وقد جاءت كلمة «هاديس» فى الإصحاح الثانى من أعمال الرسل (٢: ٢٧ و ٣١) ترجمة لكلمة «شأول» العبرية المذكورة فى المزمور (١٦: ١٠) وقد ترجمت نفس الكلمة «هاديس» مرتين إلى «جحيم» (مت ١٦: ١٨، لو ١٦: ٢٣) والجحيم هي نفسها «جهنم».

وقد أعطانا الرب يسوع المسيح التعليم الكافى عن «الجحيم» موضع العذاب (لو ١٦: ٢٣ و ٢٤)، كما يذكر الرسول يوحنا فى سفر الرؤيا بعض التفاصيل عنه (رؤ ٢٠: ١٠ و ١٥) ويصف الكتاب المقدس «الهاوية» بأنها:

١. توجد تحت الأرض (عد ١٦: ٣٠ - ٣٢، أم ١٥: ٢٢، إش ١٤: ٩ - ١٥، حز ٣١: ١٧، عا ٩: ٢) راجع أيضاً فيلبى ٢: ١٠).
٢. هوة عميقة (تث ٣٢: ٢٢، أم ٩: ١٨).
٣. لها أبواب (إش ١٨: ١٠ و مت ١٦: ١٠) ولكنها مفتوحة ومكشوفة أمام الله (أي ٢٦: ٦، أم ١٥: ١١).
٤. تسودها الظلمة (٢ صم ٢٢: ٦، مز ٦: ٥، ٨٨: ٢).
٥. قاسية لا ترحم (نش ٨: ٦).

The Kingdom Interlinear Translation of the Greek Scriptures, Rendered from the Original Greek Language by the New World Bible Translation Committee and published by Watchtower Bible and Tract Society of New York, Inc., 1985, p. 1155.

هناك كانت تُعذب هذه الأرواح عذاباً أبدياً. وكان الإغريق يعتقدون أن مملكة هاديس تقع تحت الأرض، وأن فيها خمسة أنهار: أخيرون وكوكيتوس وليثي وفليجيثون وستيكس. وكل من هذه الأنهار يشكل جزءاً من حدود المملكة مع أراضي الأحياء. وكان ستيكس أشهر أنهار مملكة هاديس. ولعبور هذا النهر، كان على الروح أن تُعبر على مركب شارون الذي كان يطلب أجزاء على عمله. ولهذا كان الإغريق يضعون قطعاً نقدية في أفواه أمواتهم قبل دفنهم. ويقع منزل هاديس على شاطئ ستيكس، ويحرس هذا البيت كلب بشع، ذو رؤوس ثلاثة، اسمه سيربيروس. وبعد عبور النهر، يخبر كل روح عن مكانها الأبدى ثلاثة حكام: أيكوس، ومينوس، ورادامنت. وتعذب أرواح مرتكبي الجرائم الفادحة ثلاثة آلهة تسمى فيوريز أو إيرينيز. وقد اعتقد الإغريق بوجود مواقع أسطورية تحت الأرض مثل هاديس إذ كانوا يعتقدون أن أرواح الموتى تعيش فيها. ² Ibid., p. 1153.

٦. فاغرة فاهها لتبتلع فرائسها (أم ١ : ١٢) فهي لا تشبع (أم ٣٠ : ١٦).
٧. لا معرفة فيها ولا حكمة (حا ٩ : ١٠) .
٨. لله كامل السلطان عليها (مز ١٣٩ : ٨، رؤ ٢٠ : ١٣ و ١٤).

أما معجم لامب فيشير إلى الهاوية على النحو التالي:

أبيسوس ἄβυσσος: وهي كلمة مؤنثة تنتهي بنهاية مذكرة «ος»: وتعني عمقاً أو هاوية. أمّا لغوياً فهي ترادف كلمة ἄβυθος وهي كلمة مركبة من حرف الألفا السالبة α وكلمة βυθος والتي تعني أصلاً «قاع أو قرار» ومنه يكون معنى الكلمة هو «مكان عميق لا قرار له».

مدلولات كلمة أبيسوس ἄβυσσος:

جاءت كلمة أبيسوس بمعنى العمق البدائي (تك ١ : ٢). ويورد لامب نصاً لبروكلوس بطريك مدينة القسطنطينية (٣٩٠ - ٤٧٧ م.) يقول فيه عن الهاوية إنها «تجمع مائي غير ممكن الوصول إليه وَحَدُّهُ إلى أسفل»^(٣). ويقول بروكلوس عن هذا التجمع المائي إنه أنتج عن فيضان سيل مياه بلا حدود حتى إنه خرج عن تشابه باقي العناصر الأخرى ومن هنا دُعي «هاوي»^(٤). ويقول ق. كيرلس الأورشليمي: إنه من هذا السيل تَشَكَّلَ العالم أثناء عملية الخلق^(٥). ويشير القديس كليمنس الروماني في رسالته الأولى إلى أن هذه الهاوية خاضعة لسلطان الله^(٦) «الجالس على عرشه والناظر إلى الأعماق (الهاويات)»^(٧) كما يقول القديس باسيليوس في «ليتورجيته». خالق هذه الهاوية هو الله^(٨) كأحد العناصر الأربعة والتي

³ Gen. 1: 2 (MPG 87, 45A).

⁴ Ib. I, 6 (72B).

⁵ Cyr. Is. 4. 3 (2. 618C).

⁶ I Clem. 20. 5.

⁷ Lit. Bas. (p. 402. 15).

⁸ Gr. Nyss. Hex. 21 (MPG 44. 84A).

هي: السماء والأرض والهاوية والمياه كما يقول يوسابيوس أبو التاريخ الكنسي^(٩). وبما أن الله هو خالق الهاوية فهي بهذا لا يمكن أن تُفسر بطريقة مزدوجة على أنها تمثل قوى الشر في مواجهة الله^(١٠). ويستنتج القديس غريغوريوس النيسي من هذا أنه بما أن كل ما صنعه الله حسنٌ فإن الهاوية وكل ما يحيط بها لا يقع خارج خليفة الله، بمعنى أن هذا أيضاً حسنٌ لنفس السبب حتى وإن كانت هاوية^(١١). وفي أيام القديس بروكلوس، المشار إليه بعاليه، يبدو أن البعض فسر الظلمة على أنها تعني الشيطان، والهاوية على أنها الشياطين^(١٢). وكان يُعتقد أن الهاوية توجد في العالم السفلي^(١٣).

بناء على ما تقدم كان يُشار إلى الهاوية على أنها الجحيم أو هاديس الذي هو مسكن الشياطين^(١٤).

وبما أن الهاوية هي «مسكن الشياطين» فللشيطان أن يفخر بأنه «الساكن في هاوية تارتاروس ومالكها»^(١٥). ويتساءل العلامة أوريجينيس في عظة له عن «سفر التكوين» عن طبيعة الهاوية، ويجيب «إنها مسكن الشيطان وملأكته»^(١٦). وفي موضع آخر من نفس العمل يقول: «إن مياه الهاوية يسكنها رئيس هذا العالم ومقاوم الوحش وملأكته»^(١٧). أما مجازياً فيُقصد بالهاوية الشياطين^(١٨).

⁹ Eus. E. Th. 3. 2 (MPG 24. 980B).

¹⁰ Bas. Hex. 2. 4 (MPG 29. 37B). Gr. Nyss. Hex. 21 (MPG 44. 81D).

¹¹ Gr. Nyss. Hex. 21 (MPG 44. 84A).

¹² Gen. 1: 2 (MPG 87, 45B).

¹³ Apoc. En. 17. 7, 8.

¹⁴ A. Phil. III (p. 43. 20).

¹⁵ A. Thom. A 32 (p. 149. 18).

¹⁶ Or. Hom. 1. 1 in Gen. (MPG 12. 146C)

¹⁷ Ib. (148A).

¹⁸ Ib. (149A).

يُقصد بالهاوية أيضاً الجُرف الذي ألقى فيه المسيحُ الشياطين (الخنازير)
(لو ٨: ٣١).

ارتبط معنى الهاوية بالبحر الأحمر الذي يُعتبر العمق الذي غرق فيه
فرعون وكل جنوده الذين يمثلون الشيطان وكل أعوانه (عظة للعلامة
أوريجينيس عن «سفر الخروج»)^(١٩).

كانت الهاوية تُرادف العالم السفلي (هاديس) كمسكن الموتى^(٢٠)
الذي نزل إليه المسيح «نزل المسيح إلي الهاوية»^(٢١) ولكنه لم يُمسك
فيها^(٢٢). وكنتيجة للاعتقاد السائد بأن «المياه هي مسكن الشياطين»
كان يُعتَقَد بأن انتصار المسيح على الهاوية مرتبط بمشييه علي البحر. في
هذا يقول يوسابيوس: «إن كثيرين نزلوا إلي الهاوية وظلوا مقيدين فيها
وليس لهم أن يتمشوا فيها ولكن المسيح وحده هو الذي مشي كحُرٍّ في
الهاوية حتى يفترق المضجعين فيها»^(٢٣).

وفي رسالة ليوسابيوس القيصري ضد ماركيلوس أسقف أنقرا (القرن
الرابع الميلادي) عن تفسير الأخير لسفر الأمثال (٨: ٢٢ - ٢٤) وهو النص
المفضّل لدى الأريوسيين ينقل يوسابيوس عن ماركيلوس أنه يقول: «يقول
النبي إن قلوب القديسين تشبه الأعماق (الهاويات) لأن في أعماقها عطية
الروح»^(٢٤). وقد ردّ يوسابيوس على هذا التفسير قائلاً: «ليس صحيحاً أن
قلوب القديسين كانت تشبه الأعماق (الهاويات) قبل تجسد المخلص لأنه
كيف يمكن أن يُشار إلى الجسد قبل خلقه الهاوية؟»^(٢٥).

¹⁹ Or. hom. 3. 3 in Ex. (MPG 12. 316D).

²⁰ Or. Engast. 7 (MPG 12. 1024D).

²¹ Or. hom. 6 in Lc. (p. 42. 15).

²² Meth. Fr. II in Job (p.514. 6).

²³ Eus. E. Th. 3. 3 (MPG 24. 988A).

²⁴ Fr. 19 ap. Eus. Marcell. 23 (MPG 24. 804B).

²⁵ Eus. Marcell. 2. 3 (MPG 24. 804C).

وفي تفسير القديس كيرلس السكندري لسفر حزقيال (٣١: ١٥) يقول إن الهاوية العقلية هي «الأرواح العلوية»^(٢٦). وفي تفسيره لسفر حبقوق (٣: ١١) يقول إن الهاوية يُقصد بها «جماعة المؤمنين ككل» أو «كل الجنس البشري»^(٢٧) (في قالب مجازي ورمزي بالطبع).

ويُقصد بالهاوية أيضاً المحيط Ocean وهو غير العمق البدائي (تك ١: ٢)^(٢٨).

يُشار إلى الهاوية أيضاً رمزياً أو مجازياً ويُقصد بها عمق حكمة الله وبره وأحكامه ومعرفته ولطفه^(٢٩) ويقصد بها أيضاً «لطف المسيح»^(٣٠). ويُشار بالهاوية إلى العقل الذي تضيئه الحكمة^(٣١) وإلى القلب كهواية غير منكشفة^(٣٢). ويُقال عن التواضع الرهباني إنه «هاوية كمال»^(٣٣) وعن الراهب إنه «هاوية تواضع»^(٣٤).

أما في اللغة اللاتينية فالكلمة «هاوية» تترجم بـ «infernus» والتي تعني «ما هو سفلي» أو «العالم السفلي» وهي بهذا قريبة المعنى من المصطلحين العبري واليوناني.

²⁶ Cyr. Abac. 52 (3. 566D).

²⁷ Ib.

²⁸ Eus. L. C. 1. 1. (MPG 20. 1321B).

²⁹ Thdt. Ep. 144 (4. 1240), id. qu. 4 in Gen. (i. 8), qu. 27 in Gen. (i. 42), cf. (Ps. 35: 6).

³⁰ Thdt. Rom. 5: 7 (3. 54)

³¹ Max. amig. (MPG 91. 1412A).

³² Mac. Aeg. Elev. 21 (MPG 34. 908A).

³³ Jo. Clim. Scal. 25 (MPG 88 993D).

□□ Ib. 23 (969A).